

الجغرافي و الرحالة إلى حوقل البغدادي الأهمية العلمية لرحلته إلى جزيرة صقلية

جهينة علي حسن

هو أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصبسي أو الموصلي أو البغدادي (ت 362هـ) وذلك بحسب اختلافات الروايات في تعيين مسقط رأسه، وهو يعدّ واحداً من أشهر الجغرافيين والرحالة المشاركين الذين أفرزتهم العصور الإسلامية الزاهية.

وإذا رغبتنا في الوقوف على رحلة من رحلات ابن حوقل، فلن نجد في الحقيقة أمتع ولا أطرف من رحلته إلى صقلية (1) التي سجل خلالها انطباعاته عنها وعن أهلها، ثم ضمّها كتابه صورة الأرض، ففي نطاق أسفاره الطويلة في أمصار العالم الإسلامي حطّ ابن حوقل رحله في جزيرة صقلية، فجال في مدنها الرئيسية جولات واسعة. ثم لما بدأ يسجل رحلاته ومذكراته وصفها وصف المشاهد المطلع.

ولندعه يحدثنا عن موقع جزيرة صقلية وشيء من جغرافيتها. يقول ابن حوقل: "ومنها- أيّ مدن جزيرة صقلية- المدينة الكبرى المسماة: بلرم (2)، وعليها سور عظيم من حجارة، شامخ منيع، يسكنها التجار، وفيها مسجد الجامع الأكبر، كان بيعة للروم قبيل فتحها، وبلرم طائفة من القصابين والجزارين والأساكفة، وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحوم والقليل منها برأس السمّاط (3). ويجاورهم القطانون والحلاجون والحذاؤون وبها غير سوق مالح، ويدلّ على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أني حرّزت المجتمع فيه إذا غصّ بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا، لأنه لا يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة وكلّ صفّ منها لا يزيد على مائتي رجل".

نقد ابن حوقل لأهل صقلية

66

إنّ ذلك يستدعي بالضرورة الحرص على الإكثار من المساجد في هذا البلد الذي تعيش فيه أعداد كبيرة من غير المسلمين، حتى إن الدكتور إحسان عباس في كتابه "العرب في صقلية" يؤكد أن ذلك الأمر أشبه بظاهرة صاحبت الفتح الإسلامي في أقطار أخرى غير صقلية، وإن كانت في صقلية أشدّ وأقوى، وذلك للأسباب المذكورة. فالإكثار من بناء المساجد على ما فيه من إعمار مندوب ومرغوب فيه لتعظيم شعائر الله، هو فيما يتصل بصقلية دليل واضح لتثبيت، أو الرغبة في تثبيت الهوية الإسلامية في هذا البلد وترسيخها.

أما النقطة الثانية: التي لم يتقبلها ابن حوقل وصبّ جام نقده وسخريته على أهل صقلية - فتتصل بما شاهده في صقلية من كثرة المعلمين والكتّائيب. ونستمع إليه يقول: "... والغالب على البلد المعلمون والمكاتب(5) به في كلّ مكان، وهم فيه على طبقات مختلفة ومنازل شتى متباينة، حتى إنهم المتكلمون على السلطان واختباراته والإطلاق بالقبايح من ألسنتهم بمعائنه وإضافة محاسنه إلى قبائحه. وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم ولم ينقص من ذلك إلا القليل وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن ولا في بلد من البلدان".

ويمضي ابن حوقل في نقده الغاضب على المعلمين في صقلية، فيقول: "ومن أرث ما رأيته وأغته خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان، شركاء متشاكسون على باب عين شفاء، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط: أشقر أزرق.. ورجل يعرف بابن الودّاني..."

".. أن جميع أهل صقلية لصغر أحلامهم ونقص درايتهم، وبعد افهامهم، يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم وبهم وعندهم يقوم الحلال والحرام، وتعتقد الأحكام، وتنفيذ الشهادات، وهم الأدباء والخطباء.

ولقد رأيت ولداً كان لإسحاق بن الماجلي يخطب نحو حولين كان يجزم الأسماء مع الصلة، ويجرّ الأفعال من أول خطبته إلى آخرها".

تري ما سبب ذلك؟.. لقد فسّر ابن حوقل ذلك الأمر بطريقته أيضاً فقال: "... وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو، ورغبتهم عن الجهاد. وذلك أن بلادهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحاذ العدو والجهاد فيهم لم يزل قائماً والنفير دائماً منذ فتحت صقلية، وولاتهم لا يفترونه(6). وإذا نفروا لم يفتروا بالبلد أحداً إلا من بذل الفدية عن نفسه أو أقام العذر في تخلفه مع رابطة السلطان، وكان قد سبق الرسم بإعفاء المعلمين قديماً بينهم من النوائب، وحملت عليهم المغارم... فإن فيهم الكثير تمرّ به السنة فلا يصيب من جميع صبيانهم، وهم كثير، عشرة دنائير، فأيّ منزلة أقيح من رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو، وعزه، مع تخريج أولاد السراة وأهل الإمكان، عنصر الخذلان ومظان الحرمان وبالإجماع منهم، ومن كلّ إنسان.

هذه نتف من آراء وأقوال ابن حوقل في معلمي صقلية، والأمر الذي لا مراء فيه أنه قد تحامل كثيراً على المعلمين، وقسى عليهم قسوة بالغة بسخريته بهم، مع أن هذه الكثرة التي عابها تدلّ على

نشاط علمي أو ثقافي زاخر. ولقد فات ابن حوقل أن ينتبه إلى ذلك، ثم أو ما درى سامحه الله أن كلاً ميسر لما خلق له؟.

والحملة على المعلمين والسخرية بهم، سبقه إليها أبو بحر عمرو بن عثمان الجاحظ كما هو مشهور، ثم تبعه الآخرون تقليداً وتطرفاً.

أما النقطة الثالثة: أو الموضوع الثالث الذي شاهده ابن حوقل من حياة المجتمع الصقلي، فلم يعجبه، فصَبَّ نقده المرير عليهم، ذلك الموضوع هو ما تمثل في قضية شرب أهل صقلية من الآبار بدلاً من العيون العذبة الجارية في بلادهم، وسبب ذلك التصرف في رأيه قال: "... وشرب أهل المدينة. وهم المجاورون لسورها من نحو باب الرياض إلى نحو عين "شفاء" من مياه هذه العيون، وباقي أهلها وأهل الخالصة وجميع أهل الحارات شربهم من آبار دورهم، خفيفاً كان أو ثقيلاً من الماء، ويلذ لهم على كثرة المياه العذبة عندهم، وذلك لكثرة أكلهم البصل".

"... وأكثر مياه البلد والحارات من الآبار ثقيلة غير مرئية، وإنما صرفهم إلى شربها رغبة عن شرب الماء الجاري العذب (قلة مرواتهم) وكثرة أكل البصل، وفساد حواسهم بكثرة تغذيتهم بالشئ منه، وما فيهم من لا يأكله كل يوم، أو يؤكل في داره صباح مساء من سائر الطبقات، وهو الذي أفسد تخيلهم، وضرر أدمغتهم، وحير حواسهم، وغير عقولهم، ونقص أفهامهم، وبلد معارفهم، وأفسد سحنة وجوههم، وأحال أمزجتهم، حتى رأوا الأشياء أو أكثرها على خلاف ما هي به".

ومن المدهش أن نرى أن ابن حوقل يسوق موضوعاً يريد أن يدل فيه على صدق ما ذهب إليه من تأثير البصل، وفي الوقت نفسه يبرر قسوته على أهل صقلية، فهذا هو ذا يقول: "... ومما يؤيد قولي ويشهد ببرهانه ما حكاه يوسف بن إبراهيم الكاتب من كتاب "أخبار الأطباء" عند نزوله بدمشق على عيسى بن الحكم المتطبب، قال: ذاكرته بالبصل وفي الوقت نفسه يبرر قسوته على أهل صقلية، فهذا هو يقول: "... ومما يؤيد قولي ويشهد ببرهانه ما حكاه يوسف بن إبراهيم الكاتب في كتاب "أخبار الأطباء" عند نزوله بدمشق على عيسى بن الحكم المتطبب، قال: ذاكرته بالبصل، فلم يزل في ذمّه ووصف معائبه، فلم أستحسن ذمّه إياه، فقلت: قد رأيت منه في سفري هذا منفعة، فسأل عنها فقلت: إني كنت أذوق الماء في بعض المناهل، فأجده كريهاً، فأكل البصل وأعادت شربه، فأجد حاله قد نقصت، وكان عيسى قليل الضحك فاستضحك من قولي، ثم استرجع بجزع منه، وقال: يعز علي أن يغلط مثلك هذا الغلط، لأنك صرت إلى أسمح نكتة في البصل، فجعلتها منقبة. يا هذا أليس متى حدث بالدماغ فساد فسد الحواس، حتى ينقص حسّ الشمّ وحسّ الذوق والسمع والبصر؟ فقلت: أجل، فقال: إن خاصية البصل إحداث فساد في الدماغ، وإنما قلل حسّك لملوحة الماء ولكراهيته ما أحدثه البصل في دماغك من الفساد".

إن ما ذكره ابن حوقل هنا يؤكد فعلاً شديد تحامله على أهل صقلية، وإلاّ فالبصل كما ذكر كثير من أطباء العرب والمسلمين المتقدمين جليل الفائدة، ثم ليت ابن حوقل بيننا اليوم ليعرف

رأي الطبّ الحديث في أهمية البصل. ثم إن الشرب من الآبار أمر كانت تعرفه أغلب المدن العربية والإسلامية حتى وقت قريب.

وليس هذا هو كلّ رأي ابن حوقل في أهل صقلية، فلقد غالى سامحه الله في نقده فهاجم هنا لا أهل صقلية فحسب، بل أرض صقلية نفسها. قال: "... وجميع ما تقع عليه الضرورات وتدفع الحاجة إليه من سائر الطلبات مجلوب من بلدهم، ومحول إلى جزيرتهم. وقد جمعت مع فساد عقول أهلها، فساد التربة والقمح والحبوب، ولا يحول الحول عليها عندهم إلا وقد فسدت، وربما ساءت".

وعلى أية حال فإذا كان ابن حوقل قد تحامل على صقلية، فقد تحامل كذلك على قطر جليل وبلد كبير، هو الأندلس، وعلى الرغم من إعجابه بها وثنائه عليها، فلقد رمى فرسان الأندلس بالجبن وقلة البأس والبسالة، ورماهم بضالة تنظيمات جيوشهم العسكرية، ولقد انبرى للردّ عليه نفر من الأندلسيين، ففندوا دعواه، وهناك فصل ممتع عن هذا في كتاب 'نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب' للمقري، وكذلك في الكتاب الذي نشره الدكتور صلاح الدين المنجد عن فضائل الأندلس وأهلها، وهي مجموعة رسائل نشرها وقّدهم لها وأخرجها هو نفسه.

موقف النقد العلمي من ابن حوقل

إن رحلة ابن حوقل إلى صقلية هي نموذج طريف لرحلاته الجغرافية.. وإذا أردنا أن نقول شيئاً عن ابن حوقل وكتابه ورحلاته، نستطيع القول أنه بصفة عامة، وبصرف النظر عن موقفه المتحامل من أهل صقلية والأندلس، فإنه يعدّ دون شكّ من أبرز الجغرافيين الرحالة، فكتابه حوى وصفاً شائقاً وحيوياً لأحوال البلدان والأقاليم التي زارها ووصفها وصف الخبير المتحقق. هذا شيء والشيء الآخر أن ابن حوقل تميّز بكثير من صفات الباحث المتحقق المدقق. ولقد أثنى عليه كثير من الباحثين والمستشرقين، فهذا كراتشوفسكي المستشرق الروسي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، يقول: "إنه يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول من بين جغرافيين المدرسة الجغرافية في شؤون المغرب". أما آدم منتر صاحب كتاب "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" سالف الذكر، فيقول عن ابن حوقل وزميله الجغرافي الرحالة المشهور جداً (المقدسي): "ثمّ جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري، فكانت هي الذروة التي بلغها العرب في وصف البلدان.. وكلاهما قد سافر حتى دوّخ الممالك وحمله تيار الأسفار واستهوته حياة الارتحال والسياسة على طريقة المسلمين، وكلاهما أيضاً قد اطلع على الكتب التي صنفت في هذا الفن، وكلاهما قد انتهت إليه اللغة أكثر انصفاً ودقة وأسلس قياداً، ممّا وجدها المؤلفون المتقدّمون، وقد استعملها في فنيهما استعمال من يملك ناصيتها، وإن كان ابن حوقل في ذلك أقلّ إظهاراً لتكلف الطرافة والجمال من المقدسي".

أما الأستاذ علي محسن مال الله صاحب كتاب "أدب الرحلات عند العرب"، فإنه يثني على خلو كتاب ابن حوقل من الخوارق والأعاجيب التي لم تتسرب إلى كتابه. ويرى أن رحلاته تعدّ مصدراً نفيساً لجغرافية بلاد المسلمين في القرن الرابع الهجري، ولا سيما فيما يتصل بالتصوير الطبغرافي (7)، ويثني مال الله كذلك على علم ابن حوقل بفنّ المعمار الإسلامي ودرايته.

والى جانب هؤلاء، نجد الدكتور أحمد رمضان صاحب كتاب "الرحلة والرحالة المسلمون" يصف ابن حوقل بالدقة في الوصف، ولا سيما في تقديم المعلومات الاقتصادية الهامة، كقضايا الخراج والجباية والعشور والصدقات، ويعلل ذلك الاهتمام، ومن ثمّ الدقة فيه بأنه جاء وليد اتجاه ابن حوقل الاقتصادي باعتباره كان تاجراً رحّالة.

□□

□ الهوامش والإحالات:

1- فتحت جزيرة صقلية على يد الأغلبية أصحاب تونس الذين كانوا أمراءها في الفترة الواقعة بين سنوات 184-296هـ، ثم تتابع افتتاح مدنها بعد ذلك حتى تم فتح الجزيرة كلها في سنة 261هـ. أما قائد الحملة الأغلبية الأولى التي فتحت بها مدينة سرقوسة فهو الفقيه القائد أسد بن الفرات الذي توفي في أثناء الفتوحات الأولى وتحديدًا سنة 213هـ.

2- بلرم أو بالرمة أو بالرمو: Palermo عاصمة جزيرة صقلية وأشهر مدينة فيها. انظر الموسوعة العربية الميسرة - إشراف محمد شفيق غريال - منشورات مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر "دار الشعب"، طبعة 1965 (صورة طبق الأصل)، ص 216.

3- السماط: الصف: وسماط القوم: صفهم.

انظر ابن منظور: لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت 15 مجلداً، المجلد السابع، ص 325.

4- ما توقف عنده ابن حوقل متشككاً فيه فيما يتصل بعدد مساجد قرطبة، هو الحق في الواقع، بل لعله يفوق خمسمائة مسجد إلى أكثر من ثلاثة أضعاف هذا العدد. بل لقد زاد بعضهم فجعلها أكثر من ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعين مسجداً. وقد ذكر هذه الأقوال عدد من مؤرخي الأندلس من أمثال ابن حيان صاحب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، وابن غالب الأندلسي في كتابه فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، والحميري في الروض المعطار، والمقري في نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وعلى كل فهناك تفصيل واسع في الكتب الحديثة التي تناولت هذا الجانب الحضاري من تاريخ الأندلس مما استقاه أصحابها من أولئك المؤرخين، من ذلك مثلاً: قرطبة في العصر الإسلامي، تاريخ حضارة، للدكتور / أحمد فكري، منشورات مكتبة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1983م، ص: 186 وما بعدها.

5- المكتاب واحدها: المكتب. والمكتب: موضع الكتاب، والمكتب، والكتاب/ موضع تعليم الكتاب والجمع الكتابيب والمكاتب. فالمكتب بفتح التاء: موضع التعليم، والمكتب بكسر التاء: المعلم، والكتاب: الصبيان.

*** التراث العربي ***

انظر ابن منظور: لسان العرب، المجلد الأول ص699، والملاحظ أن أهل المغرب والأندلس - وصقلية طبعاً بحكم الجوار - يكثرّون استخدام لفظة المكاتب في التعبير عن موضع التعليم بعكس المشاركة الذين تشييع عندهم لفظة الكتاب.

6- لعله يقصد لا يقفرون دونه، أي الجهاد.

7- الطبغرافيا: مصطلح جغرافي حديث، يعني الوصف التفصيلي، خصوصاً على الخريطة للمكان بما في ذلك تضاريسه وأي ظاهرات دائمة نسبياً، سواء أكانت طبيعية أم من صنع الإنسان - يوسف التوني: معجم المصطلحات الجغرافية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق، 1977، ص330.

□□□